ظاهرة الرق ومواقف الممالك السودانية بين القرنين 11 و16م

أ.د. نور الدين شعباني

جامعة الجيلالي بونعامة، خميس مليانة، الجمهورية الجزائرية

هناك عدة دراسات تناولت ظاهرة الرق على أساس أنها ظاهرة إفريقية المصدر، ودرست الرقيق على أساس أنه بضاعة إفريقية اغتصبتها الشعوب الأخرى، أي أنه تم ربط مصدر الظاهرة بالإنسان الإفريقي الذي ظل مستهدفاً من طرف غيره من الشعوب الذين اعتبروا أنفسهم أعلى درجة منه، نسبةً إلى نظرية التفوق العرقي. على الرغم من أن التاريخ يخبرنا أن هناك شعوباً أخرى من غير الجنس الأسود ارتبط تاريخهم بالاسترقاق، مثل شعوب شرق أوروبا وآسيا الصغرى الذين ارتبط اسمهم بالعبودية، حتى أصبح يُطلق على شعب واسع منهم اسم Slaves، أي العبيد، وهم الذين أسمتهم المصادر العربية الإسلامية بالصقالبة، والذين كانوا عبيداً ثم موالي لبني أمية في الأندلس.

لكننـــا في هذه الورقة البحثية أردنا معالجة الظاهرة من خلال اســـترقاق الإنسان الإفريقي للإنســـان الإفريقي، أي محاولة معالجة وضعية الرقيـــق الأفارقة الســـود في ممالـــك إفريقية سوداء، وأسياد سود أفارقة أيضاً، وموقف تلك الممالك الإفريقية الإسلامية من الرقيق السود الأفارقـــة ومن ظاهرة الاســـترقاق. فما طبيعة موقف الممالك الإفريقيـــة القديمة من ظاهرة الرق والرقيق الأفارقة مثلهم، وأيّ مكانةٍ احتلها الرقيق عندهم؟

أولاً: الدراسات السابقة عن ظاهرة الرق في إفريقيا:

إن الـــرق ظاهرة إنســـانية، ارتبطت بتاريخ الإنسان منذ بداية الحضارات البشرية القديمة، لكنها تحولت مع مرور الوقت إلى مادة للدراسات التاريخيـــة، خاصـــةً بعدما ظهـــرت الاتفاقية العالمية فـــي جنيف التي تحرّم التجارة بالرقيق وتوجـــب القضاء عليه نهائياً في ٢٥ ســـبتمبر/ أيلول ١٩٢٦م، والتـــي دخلت حيز التنفيذ في ٩ مارس/آذار ١٩٢٧م لضمان القضاء الكامل على الرق بجميع صوره وعلـــى الاتجار بالرقيق في البر وفي البحر.

ومن ثَمّ أصبحـــت الظاهرة من التاريخ ومن الماضي، حيث بدأت تظهر كتابات ودراســـات حول الظاهـــرة من مختلف المدارس التاريخية، بعض هذه الدراسات ركّزت في تجارة الرقيق عبر الأطلسي التي انتشرت خلال القرنين السادس عشر والســـابع عشر الميلاديين، وبعضها تناول موضوع الرقيق داخل الممالك الإفريقية.

١) نماذج من الكتابات الغربية:

١- دراسة جان بيير ساردان:

من أهـــم الكتابـــات التـــي صادفتني حول الرق مـــا كتبه المؤرخ الفرنســـي جان بيير دي ســـاردان[١] jean Pierre de Sardan، في مقـــال حول تبادل الرقيق بين شـــعب زرما فـــي مملكـــة ســـنغاي، بعنـــوان Esclavage d›échange et captivité familiale chez les Songhay-Zerma، أي «تبـــادل الرقيق والســـبي العائلي عند الســـنغاي-زرما»، حيث يتحدث عن إشكالية اســـتمرار ظاهرة العبودية داخل الممالك الإفريقية رغم زوال أسباب وجود الظاهـــرة، بالإضافة إلى ظهـــور القوانين التي تحرّم العبودية وتجارة الرقيق والســـبي من أجل الاستعباد، ويشـــير إلى أنه رغم انتقال السلطة في تلـــك المناطق بين زعماء محليين تقليديين؛ فـــإن الطبقية بقيت موجـــودة، حتى الزواج بين أحفاد الأحرار (بورسين) وأحفاد العبيد (بانيا) بقي محظوراً[٢]. وأن الإنســـان في زرما يتحول إلى عبـــد بمجرد قنصه من طرف مَن هم أقوى منه من السنغائيين النبلاء، أو أسره فيتحول إلى سلعة مثل الأنعام، يُستخدم في الأشغال الشاقة ويباع وحتى يقتل من طرف أسياده مثل الأنعام. رغـــم أنه في تاريخ زرما لـــم يكونوا ينتمون إلى طائفة العبيد مثل طائفة الحدادين مثلاً[٣].

---

(١) جان بيير أوليفييه دي ساردان: هو عالم أنثروبولوجي مـزدوج الجنسية (فرنسي- نيجيري)، ولد عام ١٩٤١م بفرنسا، اشتغل بالتدريس كأستاذ الأنثروبولوجيا في مدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية بمرسيليا بفرنسا، وبجامعة عبدو موموني بنيامي.

(٢) Olivier de Sardan Jean-Pierre. Esclavage d'ўchange et captivitў familiale chez les Songhay-Zerma. In: Journal de la Sociўtў des Africanistes, 1973, tome 43, pp.151-167. DOI : https://doi.org/10.3406/jafr.1973.1710 www.persee.fr/doc/jafr_0037-9166_1973_num_43_1_1710

(٣) Dieterlen Germaine. Contribution a l'ўtude des forgerons en Afrique Occidentale. In: Йcole pratique des hautes ўtudes, Section des sciences religieuses. Annuaire 1965-1966. Tome 73.

وبهذا؛ نجد هذه الدراسة تحاول أن تلصق ظاهرة الاسترقاق بالأفارقة الذين يسعون إلى استرقاق بعضهم لبعض، مبعداً دور الاستعمار والمستكشفين الأوروبيين.

٢- دراسة توماس هوغ:

وهناك دراسة أخرى قام بها هوغ توماس[١] Hugh Thomas، حيث قدّم دراسة حول تجارة الرقيق عبر الأطلسي بعنوان «تجارة الرقيق: تاريخ تجارة رقيق الأطلسي» The Slave Trade: The Story of the Atlantic Slave Trade ١٤٤٠-١٨٧٠، فعلى الرغم من أن صاحب الدراسة يركز في تورط دول مثل بريطانيا وفرنسا وإسبانيا في هذه التجارة، والتأثير العميق لتجارة العبيد على القارة الإفريقية، بما في ذلك الحروب الأهلية، وانهيار البنى الاجتماعية، والنزيف السكاني، فإنه يتناول أيضاً الدور الذي لعبته الأنظمة السياسية الإفريقية المحلية في تسهيل تجارة العبيد. كما يستعرض الجهود التي بذلتها الحركات المناهضة للعبودية، خاصةً في بريطانيا، حيث قاد ناشطون مثل ويليام ويلبرفورس حملة لإنهاء تجارة العبيد. ويشرح كيف فرضت القوى البحرية البريطانية حصاراً على سفن تجارة العبيد، مما ساهم في التقليل من هذه العملية. كما يتعمق الكتاب في الجوانب الاقتصادية لتجارة العبيد، وكيف ساهمت في نمو الاقتصادات الأوروبية والأمريكية[٢].

وبهذا؛ يمكننا أن نلاحظ من خلال هاتين العينتين المشهورتين، من الدراسات حول ظاهرة الرقيق على سبيل المثال، أنها تحاول دائماً أن تلصق الظاهرة بتورط الإفريقي، رغم أن هذا الأمر يبقى نسبياً جداً وفي حالات محدودة جداً لدرجة لا ترقى لأن تكون قاعدة عامة.

٢) الدراسات العربية:

- دراسة المصرية عايدة العزب موسى:

بحكم أن المقام لا يتسع لأخذ عينات كثيرة؛ فإنني أخذت الدراسة التي قامت بها الباحثة والمؤرخة المصرية القديرة عايدة العزب موسى، نموذجاً للدراسات العربية حول تجارة الرقيق في إفريقيا، باعتبارها من أشهر المتخصصين في الشأن الإفريقي العرب، وذلك من خلال كتابها الشهير (تجارة العبيد في مصر في القرن التاسع عشر) الذي تناولت فيه قضية تجارة العبيد خلال القرن التاسع عشر، وقد درست الموضوع من زوايا مختلفة، اعتمدت فيه على مجموعة واسعة من الوثائق التاريخية والمصادر الأصلية، مما يجعل محتواه ثرياً ومبنياً على أدلة دقيقة.

وقد تناولت فيه أصول العبيد ومصادر جلبهم، كما تطرقت إلى الطرق البرية والبحرية لنقلهم، بالإضافة إلى دور العبيد في المجتمع المصري آنذاك، سواء كعمال أو خدم أو كجنود. ثم تناولت الجانب القانوني الذي طرأ في مصر للحد من هذه التجارة، وأخيراً المعاناة التي تعرض لها العبيد.

لكن أهم ما يمكن أن نميزه في هذه الدراسة

.1964. pp.3-28
DOI : https://doi.org/10.3406/ephe.1964.18185
www.persee.fr/doc/ephe_0000-0002_1964_num_77_73_18185

(١) هوغ توماس: هو سياسي، ومؤرخ، وأستاذ جامعي بريطاني، كان عضواً في الجمعية الملكية للأدب والأكاديمية الملكية للتاريخ، متخصص في التاريخ الإسباني، واهتم أيضاً بتجارة الرقيق عبر المحيط الأطلسي.

(٢) Hugh Thomas, The Slave Trade: The Story of the Atlantic Slave Trade: 1440–1870, Library of congrus, ŏditions, 1997.

أن الباحثة المصرية طرحت سؤالاً في أواخر هذه الدراسة، وهو: «هل باع الإفريقيون ذويهم؟»، وهو السؤال الذي يُعدّ الفيصل بين الكتابات الغربية والعربية، فأجابت بأنه على الرغم من تعاون بعض الإفريقيين مع تجار الرقيق- وذكرت نماذج من البنين- فإن أغلب الزعماء الأفارقة التقليديين كانوا يقدّسون رعاياهم، وأن الفرد في القبيلة الذي وُلد سيداً يبقى سيداً، وكان للفرد والعائلات حصانة في مجالس القبيلة التي تمنع بيعه من طرف أيٍّ كان، وأن صيده يؤدي إلى خلع الرئيس أو زعيم القبيلة الذي عجز عن حماية رعيته.

وتضيف المؤرخة المصرية في الأخير: أن صيد الإفريقيين الأحرار وتحويلهم إلى عبيد وبيعهم يقع على عاتق الأوروبيين، الذين قاموا بشتى الحيل والمكايد بإذكاء هذه التجارة، باستخدام المكر والحيلة والخديعة، من أجل تبرير أعمالهم العنصرية[1].

٣) منهج الدراسة:

وقد اعتمدنا في هذه الدراسة على المنهج التاريخي، وذلك بالرجوع إلى النصوص التاريخية المكتوبة خلال فترة الدراسة، ككتب الرحلة والجغرافيا والمسالك والمسوغات التاريخية والتراجم، مثل كتاب المسالك والممالك للبكري (القرن ١١م)، نزهة المشتاق للإدريسي (ق١٢م)، كتاب الجغرافيا لابن سعيد المغربي (ق١٣م)، وتاريخ السودان للسعدي، ونيل الابتهاج لأحمد بابا التنبكتي (ق١٦م)، وغيرها، والتي تفرّدت بالتطرق إلى ظاهرة الرق عَرَضاً في خضم حديثها عن الشعوب والأماكن والمسالك.

(١) للمزيد انظر: عايدة العزب موسى، تجارة العبيد في إفريقيا، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م، ص (٢٢٨-٢٢٩).

كما اعتمدنا على أسلوب المقارنة، سواء من خلال تبيين أوجه الاختلاف أو التشابه بين مواقف الممالك الإفريقية في تعاملها مع ظاهرة الرق، أو من خلال مقارنة تناول مختلف المدارس التاريخية لظاهرة الرّق، وإظهار جوانب التحيّز والموضوعية في كلٍّ منها.

ثانياً: الرق في ممالك السودان الغربي في العصور الوسطى:

كانت ممالك السودان الغربي التي ظهرت ابتداءً من القرن الثامن الميلادي، تَعْتَبِر الاسترقاق أحد أهم مصادر الدخل للمملكة، والركيزة الأساسية التي يعتمد عليها كل النشاطات الاقتصادية والاجتماعية، فكانت تجارة الرقيق مصدر ثراء العديد من التجار الذين كانوا يستبدلون بها سلعاً قادمة من الشمال كالملح خاصةً، كما أن امتلاك عدد من العبيد في تلك الممالك كان يُعد أحد أهم المعايير التي تُحدِّد مكانة الشخص في المملكة، لكن وضعية الرقيق كانت تختلف حسب ظروف وطبيعة تكوين كل مملكة.

١) الرق في مملكة غانة:

كانت مملكة غانة أقدم مملكة في غرب إفريقيا تحدثت عنها المصادر العربية، ومن خلال هذه المصادر يتبين أن مملكة غانة قد عرفت الرق بشكلٍ واسع، كما أن تجارة الرقيق كانت تشكّل أحدَ أهم مصادر الدخل لهذه الإمبراطورية، وكانت القبائل الهمجية المعروفة باسم «اللملم» أو «الدمدم»[2]، الواقعة إلى

(٢) تُعرف بقبائل «الدمدم» لأنها تتحدث بلغة غير مفهومة، فيقول العرب عن الكلام غير المفهوم الدمدمة، وتُعرف أيضاً باسم قبائل «لملم»، وهو على ما يبدو تحريف لكلمة الدمدم، ويمكن أن تشمل هذه القبائل تلك القبائل الواقعة جنوب مملكة مالي عند نهر السنكراني وما يليه، مثل قبائل السينوفو والجالونكي. انظر: شعباني نور الدين، عائلة كيتا ودورها في مملكة مالي الإسلامية، دار القدس الذهبية،

الجنوب من مملكة غانـــة تُعدُّ أهم القبائل التي يُجلب منها الرقيق لبيعها إلى التجار المسلمين القادمين من الشمال.

حيث يذكر الإدريســـي: أن أهل سلى وتكرور وغانـــة كانوا يُغيرون على أرض لملم ويســـلبون أهلهـــا ويجلبونهم إلى بلادهـــم، فيبيعونهم إلى التجار الداخلين إليهـــم، فيخرجهم التجار إلى سائر الأقطار[١]. كما ذكر ابن سعيد أن أهل لملم يُعرفون من خلال الرقيق في بلاد المغرب[٢].

ويضيف الإدريسي في موضع آخر: «... وفي الجنوب من بريسي أرض لملم، وبينهما نحوٌ من ١٠ أيام، وأهل بريســـي وســـلى وتكرور وغانة يغيرون على بلاد لملم، ويسبون أهلها ويجلبونهم إلى بلادهـــم، فيبيعونهم من التجـــار الداخلين إليهم، فيخرجهم التجار إلى سائر الأقطار»[٣].

وكانت عاصمة الإمبراطورية الغانية (كومبي صالح) أهم سوق يجمعون فيها الرقيق الموجهة نحو التصدير إلى الأقطار الشمالية، وكان العبيد يباعون مقابل الـــودع أو مقايضةً بالملح، حيث كان العبد يباع بمقـــدار حجم قدمه أو نعله من الملـــح، إذ كان الملح يُحمل من مناجم الملح في الصحـــراء، مثل منجم تغازة أو أوجيل أو تاودني أو غيرها، فيُحمل إلى غانة ويُقطع على شـــكل ألواح، تُحمل على ظهـــور الجمال، فإذا وصلت الحمولات إلى بلاد الســـودان، توضع تحت رجل العبد فيُقطع منها بحجم نعله أو قدمه[٤]، فيكون ذلـــك ثمن ذلك العبد، وهذا نظـــراً لندرة الملح في غانة.

٢) الرق في مملكة مالي:

كانت عملية الاســـترقاق منتشـــرة في بلاد ماندي[٥]، وكان الســـودانيون أنفســـهم هم من يغيرون على ســـودانيين آخرين مثلهم ويبيعونهم إلى تجـــار الرقيـــق. وفي بعـــض الأحيان كان الماندينغ من المالنكي أو السوننكي يغيرون على ماندينغ آخرين من السونوفو أو الجالونكي، وإذا علمنا بأن أهل سلى وتكرور وغانة كانوا مسلمين في الفترة التي كتب فيها الإدريســـي؛ فإن هذا يدل على أن المسلمين الســـودان كانوا يغيرون على أهل لملم، باعتبارهم كفاراً يجوز ســـبيهم. وتقـــول الروايات الشـــفوية المحلية (المعروفة بالجيلـــي)[٦]: إنـــه على الرغم من أن مؤســـس إمبراطورية مالي (سوندياتا كيتا) لم يقم بأخذ عبيد من المالنكي وبيعهم في الأسواق؛ فإن قادة جيشـــه كانوا يملكون من العبيد عدداً لا يُعَدُّ ولا يُحصى، فقائد جيشه (فاكولي) وحده، كان يملك في إمارة صولـــون Solon الواقعة على الضفة اليمنـــى لنهر للنيجـــر بلداً كاملاً مـــن العبيد، يُسمّى دوندوغو Doundougou، والتي تعني

الجزائر، ٢٠١٩م.

(١) الإدريســـي (أبـو عبد الله الشريف)، القـارة الإفريقية وجزيـرة الأنـدلس، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفـاق، تحقيق وتقديم وتعليق: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، الطبعة الأولى، سنة ١٩٨٣م، ص٣٣.

(٢) ابن سعيد (أبو الحسن علي بن موسى المغربي): كتاب الجغرافيا، تحقيق وتعليق: إسماعيل العربي، الطبعة الثانية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٢م، ص (٩١ و٩٢).

(٣) مصدر سابق، ص٣.

(٤) إبراهيم علي طرخان، إمبراطورية غانة الإسلامية، الهيئة المصرية للتأليف والنشر، ١٩٧٠م، ص٧٤.

(٥) بلاد «ماندي»: هو الاسم القديم لمملكة مالي، وهي تنسب إلى شعب الماندي، أو ما يُعرف اليوم بالماندينغ.

(٦) يُعرفون بـ«الرواة الشفويون» الذين يحفظون تاريخ مالي عن طريق الشعر، كما يُعرفون باسم «جلي» أو «جالا». للمزيد انظر:

Kibalabala N'Sele: Le griot: Le porteur de la parole en Afrique

In Jeu: Revue de thйвtre,.Йditeur : Cahiers de thйвtre Jeu inc. Rйdaction :Lorraine Camerlain (re-sponsable du numйro) n° 39, 1986, pp.63-66.

«الأراضي الخاصة»، وهؤلاء العبيد كان يجمعهم هنـــاك من أجل أن يقايضهم مـــع تجار الماركا والديولا بالملح الأسود، الذي كانت تفتقده بلاد الماندي. لقـــد كانت دوندوغو أكبر مســـتودع للعبيد في مالـــي، لكن ســـونديانا قام بتحرير سكان دوندوغو من أسيادهم وحوَّلها إلى مدينة إداريـــة، وصرَّح بخصوصها قائلاً: «ســـوف لن يباع أيّ أحد بعد اليوم في هذا البلد، يا ســـكان دوندوغو من الآن أنتم لا تتبعون إلا لأنفسكم»[١].

لقد اســـتجاب له قادته وحـــرَّروا بدورهم عبيدهـــم، حتى قائده الأكبـــر وصديق طفولته (تيراماغان تراوري)، الـــذي كان له الفضل في غزو بلاد الغـــرب كلها (الجولوف، وغمبيا) فإنه استجاب لهذا القرار، وحرَّر عبيده، وأعلن عدم استعباد الناس[٢].

وبمـــا أن الفترة التي كتب فيها ابن ســـعيد تزامنـــت مع جزء مـــن الفترة التـــي حكم فيها ســـونديانا إمبراطورية مالي[٣]، فهذا الجغرافي يوضِّـــح بأن هذا الأخير يكـــون قد عاصر فترة اســـترقاق الزنوج من أرض اللملـــم أو غيرها، وبيعهـــم إلى تجار المغـــرب، فلقد كانت ظاهرة القبض على أشخاص أحرار وتحويلهم إلى عبيد وبيعهم في أسواق النخاســـة منتشرة كثيراً في بـــلاد الماندينغ[٤]، وكان بعض قادة ســـونديانا المقربيـــن يمارســـون هذا العمـــل، حيث تذكر الروايات الشفوية المنقولة أن القائد تيراماغان تراوري قبض بنفسه على عدد كبير من العبيد، وأن قائداً آخر هو فاكولي دومبيا كان يملك في إمـــارة صولون، الواقعة على الضفة اليمنى لنهر النيجر، بلداً بأكمله للعبيد يُسمّى دوندوغو، وكان يبيع معظم أولئك العبيد لشـــعب الماركا[٥] من السوننكي مقابل الملح.

وكان أهـــل القائد فاكولـــي وأتباعه عندما يزورون مدينة دوندوغـــو، يضعون ملاجم على أفواه من يجدونهم في طريقهم، تشـــبه الملاجم التـــي توضع في أفـــواه الخيـــول والجمال، ثم يأخذونهـــم إلى بـــلاد المـــاركا، أو إلى منطقة الساحل في الشمال، من أجل مقايضتهم بالملح الذي يجلبونه إلى فاكولي[٦].

كما أن العشائر الماندية، في عهد سونديانا أو من ســـبقه على عرش مانـــدي، كانت قوتهم تقوم على عدد العبيد الذين يملكونهم والمعرفون بديون Dyon، حيث كان رؤساء العبيد التابعين لـــكل عشـــيرة والملقبون بـ«ديون ســـونديجي» Dyon – Sondidji، يلعبون دوراً أساسياً في تقوية العشيرة، ذلك أن العبد من الماندي يصبح حرّاً بعد ثلاثة أجيال، مما يعطي للعشـــيرة التي تملكه قوةً إضافية[٧].

---

(١) Wakamissoko,Youssouf tata cissй, la grande geste, t2, Soundjata la gloire du Mali .Editions: Karthala-Arsan, Paris, 2009, p.203

(٢) Ibid, p.207.

(٣) حكم سونديانا إمبراطورية مالي بين سنتي ١٢٣٦ و١٢٥٥ ميلادي، بينما ألّف ابن سعيد كتابه بين ١٢٢٨ و١٢٤٣م.

(٤) كانت عملية صيد العبيد تكتسي أهمية قصوى بالنسبة لممالك وإمبراطوريات الماندي (غانة، مالي، الصوصو)، إلى درجة أن المهمة الأساسية التي كانت توكل لجيوشها هي شنّ غارات للقبض على العبيد.

(٥) الماركا: هم التجار المتنقلون، أو ما يُعرف بتجار المسافات الكبرى، كانوا ينتقلون من بلاد الساحل إلى غاية منطقة الغابات والأدغال، من أجل التجارة في الذهب والملح والكولا خاصة، يُطلق عليهم عند المالنكي «الـديـولا»، ويسميهم الفلاتة بـ«المـاركا». انظر: شعباني نـور الـديـن، الديولا ودورهـم في نشر الإسـلام في منطقة الغابات الإفريقية، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، مجلد٢، عدد٣، ٢٠١٤، ص (٨-٢٧).

(٦) Monteil(Vincent), L'islam noir, une religion a la conqukte de L'Afrique. Editions du seuil, .France, 1980, p.91

(٧) youssouf tata cissй et Wa kamissoko ,La grande geste, tome 2, p.28.

وهكذا؛ نستنتج أن انتشار العبودية في بلاد ماندي كان مدفوعاً بأسباب اقتصادية واجتماعية وسياسية، وبذلك أصبح الإنسان الماندي الضعيف يقع تحت نير عبودية رجل ماندي آخر أقوى منه. إن هذه الوضعية لم تكن لتُرضي الزعيم سوندياتا الذي كان يسعى إلى توحيد جميع بلاد ماندين، وهو بحاجة لكل أبنائه أحراراً ومتآخين وسواسية، لهذا فبمجرد أن نُصِّب سوندياتا كأول منسا لإمبراطورية مالي، صرح في خطابه الشهير قائلاً: «إن الحرية للجميع، فلنعش في تضامن وفي احترام لبعضنا البعض، والعظمة لماندين... فمن أراد التجارة فليتاجر، ومن أراد الزراعة فليمارسها، إن الماندين يسع الجميع»[١].

٣) الرق في مملكة سنغاي:

كانت طبقة العبيد في المجتمع السنغائي تتمتع بمكانة مهمة، وتضطلع بأهم الوظائف والمهن الشاقة، وكانت هذه الطبقة تُمثِّل نصف المجتمع، وهذا راجع إلى كثرة الغزوات والفتوحات التي قام بها الأسكيا محمد توري، وسني علي من قبله، حيث كانت عملية الفتح آنذاك تتم عن طريق استعباد جميع السكان الوثنيين في الأراضي المفتوحة، وكان هؤلاء العبيد يُستعملون في خدمة الأراضي الخاصة بالأمراء والإقطاعيين، بالإضافة إلى الخدمة في البيوت والإسطبلات الخاصة ببيت الحكم والعناية بخيوله، أو يُستخدمون في الرعي. وكان قسمٌ من أبناء هؤلاء العبيد المتكاثرين يباعون في الأسواق مقابل شراء الخيول بأثمانهم[٢].

كما كان الأمراء والملوك في مملكة سنغاي يُقدِّمون هؤلاء العبيد كهدايا، حيث يذكر محمود كعت أن الأسكيا محمد توري كان يأخذ من قبيلة الزناجية خدماً وعبيداً له ولأهل بيته ما شاء، بحيث خصَّ عبيد هذه القبيلة لنفسه وعائلته دون غيره من السكان، وقد خصَّ بالإهداء من عبيد هذه القبيلة الشيخ الشريف الحسني صقل بن عال، وقد خصَّه بذلك دون غيره لأنه كان ينحدر من سلالة النبي صلى الله عليه وسلم- كما زعَم[٣].

وهناك بعض العبيد كان يستعملهم في حراسته والحروب مثل عبيد قبيلة أربي، الذين يبدو أنهم كانوا يحظون بثقته، فكان يخصصهم لخدمته الخاصة وملازمته، حتى أثناء الحروب كانوا يقفون أمامه وخلفه[٤]. وهناك عبيدٌ آخرون تميزوا بالبراعة في بعض المهن، وخاصةً البناء والعمران، حيث قام الأسكيا محمد توري لمّا غزا مدينة زاغ التي كان أهلها مهرة في البناء، بأخذ خمسمائة بنّاء منها، فأخذ أربعمائة منهم مع آلاتهم ورئيسهم إلى العاصمة (جاو) من أجل أن يتخذهم لنفسه[٥]، وكان رئيس هؤلاء العبيد البنائين يُدعى «كارا ماغا» (أي رئيس السود)، بينما منح أخاه «كمزاغ» مائة بنَّاء.

وعرفت مملكة سنغاي نوعاً آخر من العبيد، وهم الأقنان، و«القِنّ» من الناحية اللغوية حسب معجم المعاني الجامع: هو العبد الذي كان أبوه مملوكاً لمواليه، أما اصطلاحاً فهو العبد الذي لم يكن له أمل بالحرية[٦]، وعادةً ما يكون والد

(١) Ibid, p203.

(٢) زبادية (عبد القادر)، مملكة سنغاي في عهد الأسقيين، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ت، ص١٢٠.

(٣) محمود كعت، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، طبعة هوداس وموريس دولافوس، المكتبة الأمريكية والشرقية، باريس، ١٩٦٤م، ص٥٧.

(٤) نفسه، ص٥٧.

(٥) نفسه، ص٦١.

(٦) معجم المعاني الجامع، موقع إلكتروني: https://www.almaany.com/ar/dict/ar-

القنّ قد ارتبط مع سيده بعقد تبعية. والجدير بالذكر أن الوضعية المعيشية للأقنان كانت أقل قساوةً من العبيد، وكانوا ينتشرون في البوادي والأرياف، لهذا كان يقع على عاتقهم خدمة الأراضي والأشغال الشاقة الخاصة بخدمة ضيعات الأمراء والنبلاء من فلاحةٍ ورعي، فقد عُرفوا في عهد مملكة سنغاي باسم «الزناجية» أو «الحراطين»[١].

وكان السنغاي يطلقون على الرجل الحُرِّ لقب بورسين Borcin، بينما كانوا يطلقون على العبد الذي تم استرقاقه عن طريق الحروب والغزو لقب بانيا Banya، أما العبد الذي تم اقتناؤه عن طريق التجارة أي تم شراؤه فليس له تسمية خاصة، ولكن إذا كان العبد الذي تم أسره جديداً فإنه يتخذ اسم سير بانيا Cire Banya، وهو يمكث بصفة مؤقتة في بيت سيده ويقوم بالمهام المنزلية والإنتاجية، بحيث يكون مُعَرَّضاً في أي وقتٍ للبيع أو الإهداء إلى سيد آخر[٢].

وهناك فئة أخرى من العبيد في مملكة سنغاي وهي الحورسو Horso، وهم أحفاد عبدٍ وُلد في بيت سيده، معنى ذلك أن العبد من طبقة «السير بانيا» إذا بقي يعمل في بيت سيده فإن حفيده من الجيل الثالث (أي حفيد ابنه) يصبح «حورسو»، حيث يتحصل الحورسو على استقلالية في كثيرٍ من الأمور، فمثلاً لا يمكن أن يتم بيعه لسيد آخر، ويصبح تابعاً لسيده على شكل قرابة تشبه القرابة العائلية[٣].

أما بالنسبة للرقيق من صنف النساء؛ فإنهن كنّ يلقبنّ بلقب كونو Kono مهما كانت الطبقة التي كانت تنتمي إليها سواءً سير بانيا أو حورسو، لكن إذا تزوجت من أحد النبلاء فإنها تصبح واهاي Wahay، وهي الرتبة التي تمنحها كل الحقوق التي يتمتع بها الأحرار، خاصةً إذا أنجبت من سيدها أطفالاً، فهؤلاء الأطفال يولدون أحراراً لكنهم يبقون يحملون لقب واهاي إيزي Wahay izey، أي أبناء الواهاي[٤].

٤) الرق عند ممالك وشعوب نهر الفولتا:

يُطلق اسم «شعوب الفولتا» على تلك الشعوب التي سكنت منطقة نهر الفولتا، والتي تنحدر من نفس السلالة أو تتحدث نفس اللغة، لكنها ليست بالضرورة استقرت في نفس المكان (أي نهر الفولتا)، حيث حدثت هجرات دفعت ببعض هذه الشعوب إلى تغيير أماكن استقرارها، ودفعت أخرى إلى الاختلاط بعضها ببعض، وهو ما جعلنا نُصنِّفها إلى مجموعات رغم أنها تنتمي إلى نفس العائلة البشرية. ومن أهم هذه المجموعات نذكر: التومو، الغورونسي، الموسي (أو الموشي)، المومبروسي، الياتنغا، وغيرها، ولقد عرفت هذه المجموعات البشرية عدة ممالك مشهورة وقوية، أهمها مملكة الواغادوغو، وممالك الموسي[٥].

وكانت شعوب ممالك نهر الفولتا تتميز بنظام طبقي يميز بين طوائف السكان المختلفة،

(١) زبادية، مملكة سنغاي، مرجع سابق، ص١٢٢.

(٢) Olivier de Sardan Jean-Pierre. Esclavage d'йchange et captivitй familiale chez les Songhay Zerma. In: Journal de la Sociйtй des Africanistes, 1973, tome 43, fascicule 1. pp. 151-167; doi: https://doi.org/10.3406/jafr.1973.1710 https://www.persee.fr/doc/jafr_0037-9166_1973_num_43_1_1710

(٣) Ibid, p.154.

(٤) Ibid, p.155.

(٥) شعباني، نور الدين، طائفة اليارسي ودورها في حضارة ممالك نهر الفولتا بين القرنين ١٦و١٧، المجلة التاريخية الجزائرية، مجلد٣، عدد٢، ٢٠١٩، ص (١٢-٣٠).

ويعتبرون بعض الفئات في المجتمع أعلى مرتبة من فئـــات أخـــرى، وكان ذلك التفـــاوت الذي صنعوه بين طبقات المجتمع هو ما يجعل بعض الفئات أقل قيمةً من فئاتٍ أخرى، وبالتالي فهي مُســـخَّرة بطبيعة وضعها لخدمة الفئات الأعلى منها مرتبةً، وهو الأمر الـــذي يُعدّ تبريراً كافياً لاســـترقاق النـــاس واتخاذهم عبيداً وســـلبهم حريتهم ولو تطلب ذلك استخدام القوة[١].

فالغورونسي مثلاً كانوا ينظرون إلى الموسي الذين يجاورونهم على أنهم متوحشون بالطبيعة وغلاظ وحمقى، وأنهم أقـــرب إلى الحيوانات، فهناك مثل شـــعبي يردده الغورونسي يقول: «لا يمكـــن أن يخلو ثياب الموســـي من القمل»، كما أنهم كانوا يقولون بأن الرجل من الغورونسي إذا تـــزوج من فتاة من الفلاتـــة فإنه يصاب بمرض جلدي لا يُشـــفى منه، دلالةً على الاحتقار وعدم النظافـــة، وهذا الازدراء وهـــذا الاحتقار وحده منح الغورونســـي الحق في اســـتعباد الموسي والفلاتة. ولكن الحقيقة هو أن الغورونسي كانوا يملكون القوة العسكرية والتنظيم السياسي التي جعلتهم قادرين على الســـيطرة على الموســـي والفلاتة، وبالتالي غزوهم واســـترقاق شعوبهم كلما احتاجوا إلى ذلك[٢].

بينما في جهةٍ أخرى من منطقة نهر الفولتا، أي في الجهة الوسطى الشرقية والجهة الشمالية الغربية من النهر، نجد هنـــاك إثنية أخرى من الموســـي هي التي تسيطر على إثنية أخرى من الغورونسي، والذين يعتبرونهم همجاً متوحشين يســـتحقون الاســـترقاق، وهـــذا لأن في هذه المنطقـــة ميزان القوة متغير لصالح الموســـي، الذين كانوا يتميزون في هذه المنطقة بالتنظيم السياســـي والاجتماعي والقوة العسكرية ونظام سياســـي مركزي، بينما الغورونسي يعيشون في فوضى على شكل مجموعات متفرقة دون نظام مركزي وتنظيم سياسي محكم.

ويروي الرحالة الألماني بينغر أنه شاهد في منطقة بنيما جنود ملك الموســـي بوكاري كوتو عائدين من إحدى غزواتهم على بلاد الغورنسي وهم يقودون صَفّاً من العبيد من الرجال والنساء مقيديـــن الواحد وراء الآخر بحبل يمر برقبتهم، كما شـــاهد الكثير من العبيد من الغورنسي في بلاط ملك الموشي وقادة جيشه ورجال دولته[٣].

وبذلك؛ فإننا نســـتنتج أن ظاهرة الاسترقاق والاســـتعباد في ممالك نهر الفولتا كانت تتحكم فيها القوة العســـكرية وقوة الســـيطرة والغزو والبطش، فالقوي يستعبد الضعيف.

ثالثاً: مواقف الممالك الإفريقية من العبيد:

على الرغم من أن ظاهرة الرق كانت منتشرة بشكلٍ لافت في الممالك الإفريقية القديمة؛ فإن مواقفهـــم من هذه الظاهرة ومـــن الرقيق كانت متعددة، وسنحاول اســـتعراض مواقف مختلف تلك الممالك.

١) محاربة مملكة مالي لظاهرة الرق في عهد سوندياتا:

لمّا استكمل سوندياتا كيتا غزواته، وعاد إلى مالي من أجل الإعلان عن تأسيس إمبراطوريته، كان قد قرر أن يعلن عن قرار جريء لم يســـبقه

(١) Bazemo Maurice, Un Autre que l'on doit donner l'impression d'intйgrer : l'esclave dans les sociйtйs prйcoloniales de l'actuel Burkina Faso, Presses universitaires de Rennes, 2012, Licence OpenEdition Books, pp.53-63.

(٢) Ibid.

(٣) Binger Louis, Du Niger au golfe de Guinйe par le pays de Kong et le Mossi, Editions Hachette Paris, 1892, p.483.

إليه أيّ أحد من ملوك إفريقيا أو العالم من قبل، وهو الإعلان عن إلغـاء العبودية ومنعها في كل بلاد مالي، ثم وسـعها بعد ذلك إلى كل المناطق التي كانت تابعةً للإمبراطورية المالية.

لكن لا بد أن نشـير إلى أن سـونديانا لم يمنع اتخاذ العبيد وكسـبهم لاستخدامهم كخدم في البيوت، لكنه منع تجارتهم من خلال أسـر أشخاص من ماندي وبيعهم إلى التجار البربر أو العرب، أو مقايضتهم بالملح أو أيّ سلعة أخرى، وجعل عقوبة من يقوم بذلك الإعدام[١].

كما حاول سـونديانا أن يعيد للعبيد هيبتهم الاجتماعية بعدمـا أعاد لهـم حريتهم، وذلك مـن خلال تعيين أحد رؤسـاء العبيد المعروف بجومبا Djomba كمبعوث وممثل شـرعي له في إقليم واسـولون الذي كان يسـكنه الفلاتة، وزوده بصلاحيات وسـلطات كبيرة تمنحه الحق فـي وضع الحديد لكل الفلاتـه الذين ينطقون بكلمة «جون» Djon، والتـي تعني «عبد»، كما أوكلت له مهمة قتـل كل من ضُبط وهو يقبض على شـخص بغـرض اسـتعباده أو ثبت عنه أنه اسـتعبد شـخصاً. وقد طبق الجومبا هذه التعليمـات بصرامةٍ كبيرة، إلـى درجة أنه لُقّب بـ«تاغان منسا» أي ملك منطقة تاغان[٢].

كما كلّف سونديانا قائديه الشهيرَين، وهما: فاكولي دومبيا و تيراماكان، مباشرةً بعد معركة كيرينا بتوجيه جيشـيهما نحـو أقاليم البمبارا والفلاتـة وكل مدنها، حاملين معهم كلمة النظام والتـي تمثل شـعار حرب سـونديانا وهدفها، وهي «الحرية للجميع، إلغـاء العبودية، منع بيع الناس»، وأعطاهم تعليمات بضرب النخاسـين والمسـتعبِدين دون رحمـة، وأينمـا وجدوهم أسـروهم بعدما يتم تحريـر عبيدهم، كما زوّد سونديانا مدينة دوندوغو بإدارة مستقلة، وخلّص سكانها من سيطرة أسيادهم[٣].

٢) استخدام الرقيق في الجيوش (عسكرة العبيد):

كانـت ممالك السـودان الأوسـط، أو ما يُعرف بسودان منطقة تشـاد مثل كانم وبورنو، مـن أهم الممالك تصديـراً للعبيد الذين كانوا يجلبونهم من زويلة حسـب ما ذكره اليعقوبي[٤] خلال القرن العاشر، كما كانوا خلال القرن ١٥م يسـتبدلون العبيد بالخيول، وكانـوا في أحيانٍ كثيرة ينتظرون سـنة كاملة ليجمع للملك العدد الكافـي من العبيد. ولكن يبـدو أن ملوك كانم بورنو لم يقتصر موقفهم من العبيد على أساس سلعة للتجارة فقط، وإنما استخدموا العبيد في الحروب، وكانوا يرسلونهم للخدمة العسكرية في الشمال، كما كان الجيش الملكي مكوناً بالأساس من العبيـد، وخاصةً الحـرس الخاص للقصر الملكـي، بل إن ملك الكانم بورنو (الماي إدريس ألوما) سـلّحهم بالأسلحة النارية التي جلبها من تركيا ودربهم على اسـتعمالها، كان ملوك كانم وبورنو يعتمدون على الرقيق لتدعيم ملكهم[٥].

وكانت ممالك السـودان الشرقي، كدارفور والفونج وكردفان، تتعامل مع الرقيق ببراغماتية، وكان ملوكهم يحاولون كسـب العبيد إلى صفهم في حالة نشوب صراعات على العرش بين أفراد العائلة الحاكمـة، فملك مملكة داررفور (محمد

(١) Youssouf Tata cissйe, Wakamissoko, Op. Cit, p.29.

(٢) Ibid, pp.25-30 .

(٣) Ibid, p.25.

(٤) اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب)، كتاب البلدان، طبعة بريل، ١٨٦٠م، ص٥٩٢.

(٥) عايدة العزب موسى، تجارة العبيد في إفريقيا، ط١، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص١١٣.

تيراب) أقام جيشاً نظامياً مؤلفاً من العبيد[١].

وقد عملت ممالك السودان الغربي بنفس الموقف، حيث إن العبيد كسبوا ثقة ملوكهم مع مرور الوقت، وشكلوا أرستقراطية عسكرية، وتبوَّؤوا أعلى المناصب في قيادة الجيش في هذه الممالك، مما أدى بالعديد منهم لأن يتربعوا على عروش ممالكهم، ففي مملكة مالي- بعد فترة الضعف التي تلت مرحلة حكم سوندياتا وابنه منسا ولي- تولى الحكم منهم قائد الجيش الذي يُسمّى ساكورة أو (سبكرة)، الذي قال عنه ابن خلدون بأنه «وليّ من مواليهم» (أي عبد من عبيدهم)، والذي كان ملكاً قوياً استطاع أن يعيد لمملكة مالي هيبتها بعدما كادت أن تنهار بسبب تولي عدد من الملوك الضعفاء التافهين، فلقد استولى على الحكم من خلال انقلاب عسكري، حسب ما نفهمه من كلام ابن خلدون، الذي قال: «تغلب على ملكهم» أي أنه أخذ المُلك بالغلبة، ويبدو أن هذا هو السبب الذي جعلهم يغتالونه عند عودته من الحج بالقرب من تاجورة[٢].

تقول بعض الدراسات: إن ساكورة كان عبداً من عبيد القصر لكنه تحرر بعد ذلك وارتقى في مراتب قيادة الجيش إلى أن وصل إلى قيادة الأركان، مما سمح له بالوصول إلى السلطة عن طريق انقلاب[٣]. وقد تمكّن ساكورة بعد وصوله إلى عرش مالي من توسيع المملكة بعدة بلدان منها سنغاي وضمها إلى مملكته، ووسَّع مملكة مالي إلى غاية المحيط الأطلسي، على حساب غانة وتكرور، وأدى فريضة الحج على عهد الملك الناصر قلاوون[٤].

ونفس الظاهرة نجدها تتكرّر في مملكة دياريسو، أو ما أصبح يُعرف فيما بعد بمملكة الصوصو، حيث إنه بعدما توفي آخر ملوك عائلة دياريسو بيرما استغل قائد الجيش الذي كان أحد العبيد المحررين، وهو ديارا كانتي، ضعف الأمراء الذين خلفوا الملك بيرما والصراع المحموم على السلطة من أجل خلافته، ليستولي على السلطة، في ظاهرة شبيهة بما حدث في مملكة مالي مع ساكورة. ولقد كان ديارا كانتي هذا من طائفة الحدادين العبيد، وكان ينتمي إلى شعب الصوصو الوثيين الذي كانوا عبيداً لملوك الماندينغ، ويشتغلون في أفران الحديد وصهرها التي كانت حكراً على العبيد، ولقد تحرر ثم ارتقى في الجيش إلى أن تمكن من أخذ عرش دياريسو المسلمين لصالح الصوصو الوثيين[٥].

٣) تبني العبيد في ممالك نهر الفولتا:

عرفنا من خلال الروايات الشفوية الخاصة بممالك الموشي أن الأطفال الذي كانوا يُفصلون عن عائلاتهم قصراً عن طريق الغزو أو الخطف أو البيع في الأسواق وتحويلهم إلى عبيد، والذين كانوا يجدون أنفسهم في عالم غريب عنهم دون عائلة ودون لقب عائلي، فهذا الوضع يجعل الطفل العبد الذي يدخل إلى بيت وعائلة سيده مضطراً لربط علاقات جديدة في محيطه الجديد، ورغم أن وظيفته في هذا البيت كانت من أجل القيام بالأعمال الشاقة والقذرة والوضيعة، إلا أن بعض

(١) يوسف فضل حسن، مقدمة في تاريخ ممالك السودان الشرقي ١٤٥٠-١٨٦١م، طبعة ثالثة، دار جامعة الخرطوم، الخرطوم/ السودان، ١٩٨٩م، ص٩٨.

(٢) ابن خلدون، تاريخ (العبر)، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر، ٢٠٠٠م، ص٢٦٨.

(٣) Sidibй (Hamed), La crise malienne, chronique d'un pays qui vacille, Nouvelle йdition, Les Impliquйs йditeurs, Paris, 2020, p.14.

(٤) ابن خلدون، مصدر سابق، ص٢٦٨.

(٥) شعباني نور الدين، محاضرات في ممالك السودان الغربي، مرجع سابق، ص٩٥.

العائلات الموشية كانت لا تتردد في تبنِّي الطفل العبد، ومنحه اللقب العائلي، ومنحه مهمة داخل الأسرة والمجتمع مثل أيّ أحد من عائلة سيده.

فهذا التبني يُعدّ بمثابة ولادة جديدة لهذا الطفل باسم جديد وعائلة جديدة، وهذا طبقاً للقوانين والأعراف التي أقرتها ممالك بوركينا فاسو القديمة، وعلى هذا الأساس كان العبيد ينادون سيدهم بأبي، وهو يناديهم بأبنائي، لأنه يعتبرهم ثروة قَدِمَت إلى بيته مثل الطفل الحقيقي من صلبه[١].

لكن هذا التبني الذي يحظى به الطفل العبد لا يَتمُّ إلَّا عن طريق تطبيق طقوسٍ معيّنةٍ، فعند وصول هذا العبد إلى بيت سيده يقوم الموشي بحلق رأسه مثلما يفعلونه مع المولود الجديد بعد أسبوعه الأول من الولادة[٢]، فحسب اعتقادات الموشي وبعض ممالك منطقة نهر الفولتا العليا (بوركينا فاسو الحالية) مثل ياتنغا و واغادوغو، فإن الطفل العبد الذي يأتي إلى بيت سيده هو بمثابة طفل قادم من عالم آخر يجهل أهل الأرض عنه كل شيء يتعلق بنمط وقوانين حياته، وهذا الجهل يولِّد الخوفَ لديهم من هذا القادم

تضمن دستور كوروكان فوكا الإعلان عن قرار جريء لم يسبقه إليه أي أحد من ملوك إفريقيا أو العالم من قبل، وهو الإعلان عن إلغاء العبودية ومنعها في كل بلاد مالي

الجديد، ومن أجل جعله غيرُ مؤذٍ وغير خطير بالنسبة لسكان الأرض يقوم الموشي بتطبيق طقوس حلق الرأس التي تقطع صلته بالعالم الذي قدِم منه هذا الطفل[٣]، فشعر الرأس الذي كان يحمله الطفل أثناء خطفه من أجل استرقاقه يرمز لتلك الصفات غير النقية التي كان يحملها في حياته السابقة التي قدم منها[٤]، كما أنهم يعتقدون أن المجتمع والبيئة المحيطة به هي التي تصنع وجود الطفل، من خلال منحه الفرصة للاندماج في المجتمع الجديد، ومنحه القيم الثقافية لهذا المجتمع، وبالتالي يتحقق السلم الاجتماعي بتحويل هذا الطفل العبد إلى عنصر مفيد للمجتمع، وهذا لن يكون إلا إذا توفرت له أسرة وأب ولقب عائلي، وهذا سيوفره له سيده[٥].

٤) تنصيب الرقيق في الوظائف العليا:

كان الرقيق يتم اختيارهم من طرف مالكيهم على أساس القوة الجسدية وقوة التحمُّل من أجل

(١) Bazemo Maurice. Rites de passage et d'intŭgration des captifs dans l'ancien royaume du Yatenga. Essai d'approche comparative. In: Dialogues d'histoire ancienne, vol.15, n°2, .1989. pp.375-398
DOI : https://doi.org/10.3406/dha.1989.1863
www.persee.fr/doc/dha_0755-7256_1989_num_15_2_1863

(٢) يبدو أن هذه العادة مأخوذة من عند المسلمين الذين يحلقون رأس المولود الجديد ضمن شعيرة العقيقة. وهذا يثبت التأثير الإسلامي الذي قام به طائفة الياراسي وحتى الداغومبا في منطقة نهر الفولتا، انظر: شعباني نور الدين، طائفة الياراسي، مرجع سبق ذكره، وانظر أيضاً للمؤلف نفسه: انتشار الإسلام في غانا، مجلة قراءات إفريقية، السنة الثامنة عشرة، العدد ٥١، يناير ٢٠٢٢م، جمادى الأولى ١٤٤٣هـ.

(٣) Bazemo Maurice, Un Autre que l'on doit don-ner l'impression d'intŭgrer..., Op. Cit.

(٤) Bazemo Maurice, Rites de passage et d'intŭgration des captifs..., Op. Cit.

(٥) Ibid.

استخدامهم في حقولهم ومزارعهم ومنازلهم، وفي الأعمال الشاقة الأخرى التي تتطلب جَلَداً وصبراً وقوَّة تحمُّل لا يستطيع تحمُّلها الأسياد، أي أن الرقيق لم يكن يُنتظر منهم مهارات عقلية أو كفاءات في القيادة وتسيير أمور الدولة.

لكننا لاحظنا أنه في العديد من الممالك الإفريقية القديمة برزت قُدُرات بعض العبيد ومهارتهم في القيادة وفن السياسة والتنظيم، مما جعلهم يتبوّؤون مراكز عليا في الدولة، فلقد اعتمد ملك دارفور محمد تيراب على العبيد في الإدارة والوظائف المهمة في البلاد، بل إنه قرّب منه العبيد وعيّن أحد عبيده الخصيان، وهو محمد كُرّا في منصب «سرميندقلة» (أي كاتم أسرار السلطان ومبعوثه الخاص)، وهي أعلى مرتبة في سلّم الوظائف، كما عيَّنه بعد ذلك كبير وزرائه أي الوزير الأوّل، فهذه المكانة التي تبوَّأها العبيد لدى سلاطين دارفور لَدليلٌ على تغيّر نظرتهم إلى العبيد[١].

وتذكر المصادر أن أحد ملوك كانم في القرن ١٣م، وهو إبراهيم نيغال، لمّا شعر بتآمر ابنه عليه قتله ووزَّع إدارة الأقاليم على عبيد القصر. كما كانت بعض الجاريات وهن الرقيق من جنس الإناث تحظى بمكانة كبيرة لدى الملك فيتزوجها، وقد أصبحت بعضهنّ أمهات لولي عهد المملكة، ومنهن من أصبحن أمّاً للملك، حيث كان منصب أمّ الملك أو السلطانة الأمّ الذي يُطلق عليه عندهم اسم «غامسو» من أهم المناصب في الدولة، فقد كان للغامسو دورٌ كبير في تعيين حكام الأقاليم[٢].

وعند شعب الدوغون Dogon[٣] بمالي؛ كان بإمكان السيد أن يتزوج من عبدة، والسيدة يمكنها أن تتزوج بعبدها، وفي هذه الحالة يتحرَّر العبد ويمكنه أن يتبوَّأ مناصب عليا، خاصةً إذا كان السيد ملكاً أو موظفاً كبيراً في الدولة، وهذا لأن الاولاد المولودين نتيجة هذا الزواج سيُعتبرون من عائلة السيد أو السيدة التي تزوجت العبد[٤]. كما وُجِدت هذه الظاهرة عند شعبي اللوبي وداغارا في بوركينا فاسو[٥].

جدول توضيحي يقارن مواقف الممالك الإفريقية من ظاهرة الرق:

اسم المملكة	الجانب الاقتصادي	الاجتماعي	السياسي والعسكري	الموقف القانوني أو الديني من الرق
مملكة غانة	مصدر للدخل القومي (مقايضة العبيد بمعدن الملح).	/	/	أجازوا استرقاق القبائل الوثنية من طرف المسلمين.
مملكة مالي	مصدر للتجارة (مقايضتهم بمعدن الملح).	/	/	حرّم سوندياتا كيتا تجارة العبيد وجرّمها.

(١) يوسف فضل حسن، مقدمة في تاريخ ممالك السودان الشرقي، مرجع سابق، ص٩٨.

(٢) شعباني نور الدين، محاضرات في ممالك السودان الغربي، دار الجزائر للنشر، نوفمبر ٢٠١٥م، ص٨٢.

(٣) شعب يعيش بمالي بغرب إفريقيا، وهم ينتمون إلى جماعة المانديِ المشهورة تاريخياً، وخلال الفترة بين القرنين ١١ و١٣ لجؤوا إلى الجبال من أجل عدم الخضوع للممالك الإسلامية القوية التي ظهرت وقتذاك، مثل ممالك: غانة ومالي وسنغاي، ولهذا حافظوا على استقلالهم عن تلك الممالك.

(٤) Holder Gilles. Esclaves et captifs au pays dogon. La sociйtй esclavagiste sama. In: L'Homme, 1998, tome 38 n°145. De l'esclavage. pp.71-108; doi https://doi.org/10.3406/hom.1998.370416 https://www.persee.fr/doc/hom_0439-4216_1998_num_38_145_370416

(٥) Bazemo Maurice, Un Autre que l'on doit don-ner l'impression d'intйgrer..., Op. Cit.

مملكة سنغاي	- كانوا يُستخدمون في خدمة الأراضي والبيوت. - كانوا يُستخدمون في البناء.	يشكل العبيد نصف المجتمع ويُقدمون كهدايا.	كانوا يشركونهم في الحروب وحراسة الأراضي.	يتحرر العبد تلقائيا بعد عدة أجيال من خدمة سيده.
ممالك نهر الفولتا	يُستغل العبيد في كل النشاطات الاقتصادية الشاقة والوضيعة.	- العبيد منبوذون اجتماعيا. - يُسمح تبني العبد.	لا يشارك العبيد في الجيش.	يجوز استرقاق القبائل القوية للقبائل الضعيفة.
ممالك تشاد (كانم - بورنو)	يشكل العبيد أهم صادراتهم.	/	العبيد عنصر للتجنيد في الجيوش والحرس الملكي.	يجوز تنصيب العبيد في المناصب العليا للدولة.

رابعاً: مواقف فقهاء السودان الغربي من الرق:

كانت ظاهرة الرق محل اهتمام بعض فقهاء الصحراء الكبرى وما يليها من الجنوب، وخاصةً في المناطق الحضرية والمراكز التجارية الكبرى التي كانت تشهد ظاهرة الاتجار بالعبيد فيها رواجاً كبيراً، كما كانت هذه المراكز تُعدّ مراكز إشعاع ثقافي تعج بالعلماء والفقهاء، ومن الأمثلة على هذه المراكز والمحطات نذكر: جني، تنبكتو، جاو، توات، وغيرها من المراكز التي كانت نسبة العبيد فيها تتجاوز ربع سكان هذه المدن.

وكان من فقهاء توات من أبدى تعاطفاً مع العبيد وسعى إلى عتقهم، مثلما فعل الفقيه محمد بن إسماعيل المسناوي الجراري، وهو فقيه واحة تيكورارين المتوفى سنة ١٦٥٤م، وصاحب مكتبة كبيرة في تيكورارين، والذي كان قد ادعى المهدوية في مراحل من حياته، فلقد قام هذا الفقيه بعتق جميع عبيده ووزع عليهم كل ماله[١]. بالإضافة إلى الفقيه أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن موسى عريان الرأس، الذي اشترى عدداً كبيراً من العبيد وأعتقهم لوجه الله[٢].

موقف أحمد بابا التنبكتي من ظاهرة الاسترقاق:

يُعدّ الفقيه العالم أحمد بابا التنبكتي من أشهر علماء تنبكتو والسودان الغربي في القرن السادس عشر على الإطلاق، فلقد وُلِد ونشأ في تنبكتو عام ١٥٥٦م[٣] من عائلة أقيت، وهي إحدى أكبر البيوتات العلمية في تنبكتو، كما أنه عانى كثيراً من محنة أَسْرِه من طرف السعديين خلال غزوهم لتنبكتو، وتمت مصادرة كل كتبه، ونُقِل إلى مراكش حيث وُضِع في الإقامة الجبرية.

وقد ترك أحمد بابا مؤلفاً بخصوص موقفه الفقهي من رقيق بلاد السودان بعنوان (معراج الصعود في حكم مجلوب السود)، وكان سبب تأليفه هو السؤال الذي طرحه عليه الفقيه الجزائري سعيد بن إبراهيم قدورة[٤]، الذي زار توات سنة ١٦٠٦م، وكذا من الفقيه سعيد بن إبراهيم الجراري التواتي السابق ذكره في

(١) محمد حاجي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، منشورات جار الغرب للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة فضالة، ١٩٧٦م، (ج٢، ص٦٣٠).

(٢) السعدي (عبد الرحمن)، تاريخ السودان، طبعة بريل، ١٨٩٨م، ص٥٥.

(٣) أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج في تطريز الديباج، تقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات دار الكتاب، طرابلس، طبعة ثانية، ٢٠٠٠م، ص١٥.

(٤) هو: أحمد بن سعيج بن إبراهيم قدورة، من كبار فقهاء المالكية، وهو من أهل مدينة الجزائر، ومفتيها الأول بالمذهب المالكي، وهو تونسي الأصل جزائري المولد والنشأة، توفي سنة ١٦٥٦م. عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض لثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، طبعة ثانية منقحة، ١٩٨٠م، ص٢٥٩.

هذه الورقة، ومن يوسف بن إبراهيم بن عمرو الإيسي السوسي[١]، وقد لفت انتباهه العدد الكبير من العبيد المجلوبين من بلاد السودان نحو توات، التي كانت من أهم الأسواق التجارية بين الصحراء الكبرى وبلاد السودان الغربي، فسأله إن كان عدم تَملُّك العبيد يُعتبر من الورع والزهد، وعن الحكم الشرعي في بيعهم وامتلاكهم، فكانت إجابة أحمد بابا عن طريق هذا الكتاب[٢].

يقول أحمد بابا إن الأصل في استباحة الاسترقاق في الإسلام هو أن يكون المسْتَرَقُّ كافراً، وإذا تلافى شرط الكفر زالت الاستباحة والتملُّك. وقبل أن يجيبهم جواباً مفصَّلاً سأل أحمد بابا المستفتين عن طريقة فتح أرض الرقيق إن كانت عنوةً أم صلحاً، وإذا كانوا مسلمين فما هو تاريخ إسلامهم، أكان في عهد الصحابة الفاتحين أم بعدهم، وسألهم عن الرقيق الذين لا تُعرف بلادهم هل هم مسلمون أو لا، وهل يجوز بيعه وشراؤه دون التحقُّق من حقيقته، وإذا فشلوا في الوصول إلى حقيقته هل يأخذون برأي العبد أو لا، وهنا يدخل أمره في باب الشك، وبالتالي يصبح استرقاقه لاغياً مثل الطلاق الذي يشوبه الشك[٣].

يصرح أحمد بابا بأن القاضي محمود بن عمر بن محمد أقيت بتنبكتو كان يحكُمُ بحُرية العبد الذي يدَّعِي حريته دون تحقيق، كما يُمنع شراء عبد قبل معرفة بلاده، وينزع من يد مالكه حتى يثبت ملكيته[٤].

أما جوابه عن سؤالٍ مفاده: ما حكم العبيد المجلوبين من بلدان معروفة بإسلامها مثل: كانوا وكاتسينا وجاو وبرنو وعنفوا، فقد أقر بإسلامها وأفتى بعدم جواز استرقاقها، ما عدا (عنفوا) التي قال إنه لا يعرفها ولم يسمع بها من قبل، بينما إذا كانت تدفع خراجاً أو جزية لبلاد المسلمين فلا يجوز استرقاقها[٥].

نلاحظ من خلال هذه النازلة التي أفتى فيها أحمد بابا التنبكتي لكبار علماء عصره بأن مسألة الاسترقاق في مملكة سنغاي خاصةً وممالك السودان الغربي عموماً عرفت الكثير من التجاوزات الشرعية من طرف بعض النخاسين والملوك المسلمين، ونفس الشيء رأيناه خلال القرن الثالث عشر مع سونديانا كيتا في مملكة مالي مما جعله يحرِّمها رغم أنه لم يكن من الفقهاء، ولا من الورعين، والمعلوم عنه تاريخياً أن إسلامه كان سطحياً[٦].

خاتمة:

يمكننا أن نستخلص من هذه الورقة أن الرق ظاهرة إنسانية لا تتعلق بنظرية التفوق العرقي القائمة على أفضلية جنس بشري على جنس بشري آخر، وإنما هو عبارة عن ظاهرة ناتجة عن غريزة السيطرة لدى الإنسان أينما

(١) أحمد بابا التنبكتي، معراج الصعود في حكم مجلوب السود، ترجمة وتحقيق فاطمة الحراق وجون هانويك، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، طبعة أولى، ٢٠٠٠م، ص٢١.

(٢) أحمد الأحمدي، تحديد وضعية عبيد توات من خلال «الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان»، مجلة الحضارة الإسلامية، مجلد ١٥، عدد٤، ٢٠١٤م، ص (١٦٧-١٨٦)، موقع إلكتروني:
https://www.asjp.cerist.dz/en/downArticle/45/15/4/177970

(٣) أحمد بابا التنبكتي، معراج الصعود، مصدر سابق، ص (من ٤٣ إلى ٥٣).

(٤) أحمد الأحمدي، مرجع سابق، ص١٧٨.

(٥) أحمد بابا، معراج الصعود، ص (١٧٨-١٧٩).

(٦) حول هذا الموضوع انظر: شعباني نور الدين، عائلة كيتا ودورها في مملكة مالي الإسلامية، دار القدس الذهبية، الجزائر، ٢٠١٩م.

كان وأينمـــا وُجد، وتقوم على الغلبة في وقتٍ لم تكن الروادع القانونيـــة موجودة بخصوص هذه المسألة.

كما أنها بينت لنا (أي الدراســـة) أن الرجل الأســـود الإفريقي الذي طالما صوّرته الكتابات والدراســـات على أنه هـــو الحلقة الأضعف في هذه العملية؛ لم يكن بمنأى عن تلك الغريزة التي صبغـــت غيره، ولم يكن أرحـــم على بني جلدته من غيره.

ومـــن نتائج هذه الدراســـة أن العبودية في الممالك الإفريقية القديمـــة لم تكن بالضرورة نهاية الطريق، ذلك أن كثيـــراً من العبيد الذين اختُطفوا وأُخِذوا وبيعوا في أســـواق النخاســـة وجـــدوا أنفســـهم قـــد أصبحوا قـــادة جيش وأصحاب وظائف عليا، ومنهم من دخل المملكة عبداً مصفَّداً بالأغلال ليصبح ملكاً وإمبراطوراً لهذه المملكة.

كمـــا تبيّن لنا مـــن هذا البحـــث أن علماء المســـلمين في ممالك إفريقيا جنوب الصحراء واجهوا هـــذه الظاهـــرة وبرّؤوا الإســـلام من استرقاق المســـلم لأخيه المسلم، حيث أبرزت الدراسة أن تعامل المسلمين مع الظاهرة يختلف عن تعامل من ســـواهم من الوثنيين المحليين أو المستكشـــفين الأوروبييـــن، فلقـــد تعامل أكبر ملك مســـلمي غرب إفريقيا وهو سونديانا كيتا إمبراطور مملكة مالي الإســـلامية مع الظاهرة على أنها انتهاك لحقوق الإنســـان، ولقد تضمن دستور كوروكان فوكا الإعلان عن قرار جريء لم يســـبقه إليه أي أحد من ملوك إفريقيا أو العالم من قبل، وهو الإعلان عن إلغاء العبودية ومنعها في كل بلاد مالي، ثم وســـعها بعد ذلك إلى كل المناطق التابعة للإمبراطورية المالية، حيث منع التجارة بهم، وعاقب بأشـــد العقوبات على أسر أشخاص من ماندي وبيعهم إلى التجار البربر أو العرب، أو مقايضتهم بالملح أو أي سلعة أخرى، وجعـــل عقوبة من يقوم بذلـــك الإعدام، وبذلك فقد عالج المشكل من جذوره.

وبالعودة الى ســـيرة سونديانا كيتا؛ نجد أنه على الرغم من أنه لم يكن يُظهر نفســـه بمظهر المســـلم المتشـــدد، لكنه كان ينتمي إلى عائلة مسلمة شـــديدة التدين، وكان محاطاً بمجموعة من المستشارين وهم أصدقاء طفولته من عائلة مســـلمة ومتدينة، ومنهم الفقهاء مثل رفيق دربه موسى أوموري الذي عاش فترة في مكة المكرمة وكان له تأثير كبير على ســـونديانا، وهو ما يبين أن قرار تجريمه لتجـــارة العبيد والإغارة عليهم كان قراراً نابعاً من وازعه الديني الإسلامي.

يُضـــاف إلـــى ذلك اجتهـــاد أكبـــر علماء الســـودان الغربي خلال القرن ١٦م، وهو أحمد بابا التنبكتي، الـــذي ألّف كتاباً حول فقه تجارة الرقيق، بعنوان (معراج الصعود في حكم مجلوب الســـود)، والذي ضمّنه إجابة عن أسئلة طرحها عليه كلٌّ من الفقيه الجزائري سعيد بن إبراهيم قـــدورة، الذي زار توات ســـنة ١٦٠٦م، والفقيه سعيد بن إبراهيم الجراري التواتي، والذي قدم فيه تفاصيل فقهيـــة مهمة حول الظاهرة، حيث ربط اســـتباحة الاسترقاق بعدم تحقق الإسلام، وهو أن يكون المـــسْتَرَقُّ كافراً، وإذا تلافى شرط الكفر زالت الاســـتباحة والتملُّك، كما اشـــترط في الفتح الذي يجوز فيه الاســـترقاق أن يكون عنوة، فإذا كان صلحاً زال سبب الاسترقاق، كما ربط الاسترقاق بشـــروط أخرى كثيرة إذا تعذر الحصول عليها حُرِّم الاسترقاق.

وبذلك؛ يكون زعماء المســـلمين وعلماؤهم فـــي غرب إفريقيا هم أول مـــن دعا إلى تحريم ظاهر الرق قبل الإنجليز بأربعة قرون كاملة ■